الفصل الثاني

ايديولوجيا القومية العربية:

تحليل المضمون

النظريات القومية في الغرب

اعتبر ساطع الحصري أن القرن التاسع عشر هو قرن القوميات في أوروبا، وأن القرن العشرين هو عصر القوميات في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهناك عدة نظريات تفسّر نشوء القوميات والأمم وأبرزها:

١- النظرية الألمانية:

وتعتبر أن أهم عوامل نشوء الأمم وتكوينها عاملان، هما: اللغة والتاريخ، وأبرز من دعا إلى هذه النظرية المفكرون الألمان، واعتبرت خطب فختة عام ١٨٠٧م بداية لتكون الأمة الألمانية.

٢- النظرية الفرنسية:

وتعتبر أن أهم عوامل نشوء الأمم هو إرادة العيش المشتركة في دولة واحدة هي الأصل في نشوء الأمم، وتعتبر هذه النظرية أن الدولة هي التي تنشىء الأمة، وأنها سابقة عليها، وتعطي هذه النظرية دوراً كبيراً للعوامل الجغرافية في نشوء الأمم والدول.

٣- النظرية الستالينية:

وتعتبر هذه النظرية أن الأمم تأتي حصيلة عدة عوامل هي: الجماعة المستقرة على أرض محددة، وذات اقتصاد مشترك، ولغة واحدة، وذات تراث ثقافي مشترك.

وقد وجدت كل من النظريات الثلاث صداها في العالم العربي فقامت أحزاب وجماعات متبنية النظرية الألمانية وأبرزها التي تدعو إلى القومية العربية، وقامت أحزاب وجماعات تدعو إلى النظرية الفرنسية وأبرزها الحزب القومي السوري الاجتماعي في سورية والأحزاب التي تدعو إلى القومية المصرية الفرعونية في مصر، أما النظرية الستالينية فقد تبنتها الأحزاب الشيوعية في العالم العربي، ونحن سنقف عند النظرية الأولى لأنها النظرية التي تبنتها الشخصيات القومية العربية والأحزاب القومية العربية، التي أصبحت لها قيادة العالم العربي بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م في مصر بقيادة جمال عبد الناصر، في حين انتهى دور الأحزاب التي تبنت النظرية الفرنسية من أمثال الحزب القومي السوري الاجتماعي، وحزب الوفد المصري.

فما الذي يقوم عليه الفكر القومي العربي؟ ما مضمونه؟ ومن أبرز دعاته ومنظّريه؟

تحليل مضمون ايديولوجيا القومية العربية

ساطع الحصري [1] أبرز دعاة القومية العربية وأقدمهم ورائدهم، ألقى عشرات المحاضرات حول فكرة القومية العربية، وقد أبرز في محاضراته أن القومية العربية تقوم على عنصري اللغة

---

(١) ولد ساطع الحصري عام ١٨٨٠م في حلب من سورية، وعمل أبوه قاضياً في اليمن، ودرس ساطع الحصري في مدارس استانبول، ثم عمل مدرّساً في المناطق الواقعة غربي اليونان قبل الحرب العالمية الأولى، ثم التحق بالملك فيصل بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م، وفاوض الجنرال الفرنسي غورو مبعوثاً من قبل الملك فيصل قبل هجوم الأول على دمشق وقبل وقوع معركة ميسلون على أبوابها عام ١٩٢٠م، ثم رحل الحصري مع الملك فيصل إلى بغداد بعد أن توّج ملكاً عليها، واحتل مناصب إدارية وتربوية عالية، ثم طرد منها بعد ثورة رشيد علي الكيلاني عام ١٩٤١م، ثم عاش في سورية وعمل في إصلاح المناهج التربوية، ثم عمل في الجامعة العربية في القاهرة إلى أن توفي عام ١٩٦٨م.

(لمزيد من التفاصيل عن حياة ساطع الحصري انظر الفصل الأول من كتاب: "ساطع الحصري: ثلاثون عاماً على الرحيل"، وانظر كتاب: "ساطع الحصري: رائد القومية العربية").

والتاريخ، واعتبر أن اللغة روح الأمة، وأن التاريخ ذاكرة الأمة وشعورها، وقد دون ذلك في نهاية كتابه "ما هي القومية؟" فقال تحت عنوان (كلمة ختامية في نتيجة الأبحاث): "إن الوقائع والأحداث وضحناها وشرحناها، والنظريات التي استعرضناها وناقشناها في مختلف فصول هذا الكتاب تؤدي بنا إلى الحقائق التالية: أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة والتاريخ [1]. لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشارع والمنازع، وحدة الآلام والآمال، وحدة الثقافة، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى.

ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل

---

(١) عند التدقيق لا نجد أمة عربية في أرض الواقع بالمعنى الذي طرحه الحصري، بل هي موجودة في خيال الحصري بخاصة والقوميين بعامة، لأن الأمة القائمة والموجودة عندما طرح الحصري نظريته أمة تقوم على عامل الدين الإسلامي، لا على عاملي اللغة والتاريخ كما طرح الايديولوجيون القوميون العرب.

بين مقومات الأمة الأساسية. كما أن الرقعة الجغرافية أيضاً لا يمكن أن تعتبر من المقومات الأساسية، وإذا أردنا أن نعيّن عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكوّن روح الأمة وحياتها، والتاريخ يكوّن ذاكرة الأمة وشعورها" [1].

وعندما قال الحصري ذلك عن دور اللغة والتاريخ في صنع كيان الأمة، كان ينقل ذلك القول عن النظرية الألمانية في صياغة الأمة، لكننا عندما ندقق في وضع أمتنا نجد أن اللغة والتاريخ وحدهما لا يكفيان لتفسير الوحدة التي تتمتع بها في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعقلية والمصالح والآمال والتطلعات والأذواق والأشواق إلخ... [2]، بل نجد أن

(١) ساطع الحصري، ما هي القومية؟، ص٢٥١.

(٢) إن المتفحص للفكر القومي العربي عند الحصري وغيره يجد أنه فكر غير واقعي وغير موضوعي لأنه لم ينطلق في تحديد عوامل بناء الأمة من دراسة الواقع المحيط به، بل أسقط تاريخ أوروبا على تاريخنا، وعندما وجد بعض المشابهات الجزئية بين تجزئة ألمانيا وتجزئة الدول العربية اعتمد ←

الوحدة مرتبطة بالقرآن والسنة، فلا يمكن أن نفهم عادات الناس القاطنين في المنطقة العربية وتقاليدهم ومشاعرهم وعقليتهم ونفسيتهم وآمالهم إلا بالقرآن الكريم والسنة المشرفة، فهما اللذان وحّدا مشاعر الناس، وهما اللذان أوجدا آمالاً واحدة، وأوجدا عقلية واحدة، وأوجدا نفسية واحدة، وأوجدا تطلعات واحدة، وأوجدا أذواقاً واحدة، وأوجدا أشواقاً واحدة إلخ...[1] إننا لا نستطيع أن نفسّر تلك الأمور إلا بالإسلام، لأن الإسلام دخل كل شعبة من شعب الحياة، وكل قضية من قضايا المجتمع والسؤال الذي يرد هو: لماذا استبعد الحصري الدين من تكوين الأمم بشكل عام؟ وبماذا دلل الحصري على عدم استطاعة الدين الإسلامي تكوين أمتنا بشكل خاص؟ ولماذا عارض العلماء المسلمون فكرة القومية العربية حسب رأي الحصري؟ هذا ما سنستعرضه في الفقرات التالية.

النظرية الألمانية، إن عدم الواقعية وعدم الموضوعية في الفكر القومي العربي هي التي جعلته لا ينجح في تحقيق أي هدف من أهداف النهضة.

(١) سنناقش عوامل تكوين الأمة الإسلامية في فقرة تالية من هذا الفصل.

لماذا لا تكوّن الأديان أمماً في رأي الحصري ؟

يؤكد الحصري أهمية الدين ويعلن صراحة أن الدين، بعد اللغة والتاريخ، أهم العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم، وأن تأثير الدين في هذا المضمار قد يقوي عاملي اللغة والتاريخ، وقد يضعفهما، يقول الحصري: "لأن الدين يولّد نوعاً من "الوحدة" في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنـــزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً، فالدين يعتبر من هذه الوجهة، من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر في سير السياسة والتاريخ"[1] ويقرر الحصري أن تأثير الدين في تسيير السياسة والتاريخ وتكوين القومية والوطنية يختلف باختلاف الأديان من جهة، وباختلاف العصور من جهة أخرى.

ويلاحظ الحصري أن الأديان تنقسم إلى قسمين أساسيين من الوجهة الاجتماعية: الأديان القومية والأديان العالمية.

---

(١) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص٢٣.

الأديان القومية هي أديان خاصة بقوم أو بشعب أو بمدينة معينة كالديانة الاسرائيلية وكالأديان الوثنية القديمة. "ومن الطبيعي أن الرابطة التي تتولّد منها تنضم إلى تأثير اللغة والتاريخ، وتقوي الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض" [1].

أما الأديان العالمية فهي غير مختصة بشعب من الشعوب أو بأمة من الأمم. ولكن هل أوجدت الأديان العالمية، وأخصها الإسلام والمسيحية، رابطة أقوى وأعم من رابطة القومية؟ التاريخ يشهد، حسب قول الخصري، على أنها لم تنجح، فالأديان العالمية لم تستطع أن تمزج الأقوام وأن تزيل الفوارق بينها إلا بقدر ما نجحت في نشر لغة من اللغات وفي تبديل حدود القوميات. مما يعني أن العلاقة بين الدين العالمي والقوميات تمر عبر اللغات. وهذا المرور يساعد على إبراز دور اللغة في الدين بقدر ما يساعد على إبراز دور الدين في الحياة القومية [2].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣-٢٤ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٤ .

ويرى الحصري أن الرابطة الدينية لا تكفي وحدها لتكوين القومية فيقول: "الرابطة الدينية وحدها لا تكفي لتكوين القومية، كما أن تأثيرها في تسيير السياسة لا يبقى متغلباً على تأثير اللغة والتاريخ.

إن هذا التأثير يشتد ويتراخى، يتقوى أو يتلاشى، حسب تطور علاقة الدين باللغة، ويبقى أمراً ثانوياً في تكوين القوميات بالنسبة إلى تأثير اللغة والتاريخ" [1].

لاشك أن حديث الحصري عن الأديان العالمية يمكن أن ينطبق على الدين المسيحي ولا ينطبق على الدين الإسلامي، وذلك لأن الأمم الأوروبية المعاصرة كالأمة الفرنسية، والأمة الإنكليزية، والأمة الهولندية إلخ... لم تتكون إلا بعد ما ثارت المجتمعات الأوروبية على الدين المسيحي وانعتقت من سيطرة الكنيسة، وأبعدت تأثيرات الكهنة عنها، في حين أن الدين الإسلامي استطاع أن يكوّن أمة وأن يمزج بين كل الشعوب

(١) المرجع السابق، ص٤١.

والأجناس في حضارته وهذا ما تدل عليه وقائع الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية في الخلافة الإسلامية، كما يدل عليه كل علم من علوم الثقافة الإسلامية: كالفقه، والتاريخ، والجغرافيا، والطب، والفيزياء إلخ... وهذا ما سنفصل الحديث عنه في باب مستقل.

لماذا لا يقوى الدين الإسلامي على تكوين أمة حسب زعم الحصري ؟

طرح الحصري في بعض كتاباته الشعوبية قديماً وقيام بعض المنازعات بين الترك والعرب في القرن التاسع عشر حديثاً دليلين على عدم صلاحية الدين الإسلامي لأن يكون عنصراً رئيسياً في تكوين الأمة، أما الشعوبية فهي تدل على موقف فئة من رعايا الخلافة الإسلامية نحو الأمة الإسلامية لكن هذا لا ينفي أن بقية الأمة كانت موحدة في عقائدها وأفكارها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وثقافتها وحضارتها ولغتها وتاريخها وأرضها وإرادتها التي تستمدها من الدين الإسلامي، أما فيما يتعلق ببعض المنازعات بين العرب والترك فهذا أمر طبيعي في كل مجتمع حتى

ولو كان عربياً كله أو تركياً كله، وكانت تلك المنازعات تجد أُطُراً لحلّها كما حدث في الاتفاق الأخير بين هيئة الاتحاد والترقي التركية وبين هيئة الشبيبة العربية غداة الحرب العالمية الأولى والذي نص على أداء العرب للخدمة العسكرية الإجبارية في ولاياتهم، وزيادة نسبة المسؤولين العرب في الدوائر العليا، وفي إصلاح إدارة الولايات وفق ما يقتضيه نظام اللامركزية إلخ... ولكن هذا لا ينفي دور الدين الإسلامي في إيجاد لحمة بين العرب والأتراك خلال تعايشهم مع بعضهم لقرون سابقة، ويؤكد ذلك اعتراف ساطع الحصري في كتابه السابق "محاضرات في نشوء القومية" أن السواد الأعظم من العرب كان مرتبطاً بالدولة العثمانية، متكلاً عليها، مستسلماً لها، ومعتبراً الخلافة ممثلاً له.

لماذا عارض العلماء المسلمون فكرة القومية العربية حسب ادعاء الحصري ؟

ثم يورد الحصري الأسباب التي دعت علماء الدين المسلمين إلى معارضة فكرة القومية العربية من أساسها فيحددها بثلاثة هي:

١- لأنها في رأيهم تخالف أحكام الديانة الإسلامية.

٢- لأن إطاعة أوامر الخليفة واجب على المسلمين.

٣- لأن الوحدة العربية تعارض الوحدة الإسلامية.

يعرض الحصري رأي علماء الدين الإسلامي في النقطة الأولى فيرى أنها تستند إلى الأحاديث النبوية التي نصت على نبذ العصبية، وقالت بعدم تفضيل العربي على العجمي وذلك استناداً إلى قوله ﷺ : "ليس منا من دعا إلى عصبية"، و"لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى". يقول الحصري إن أنصار الفكرة القومية قد ردوا على ذلك بقولهم: "إن المقصود من العصبية المذكورة في الأحاديث النبوية هو العصبية الجاهلية، أي العصبية القبلية، وأما الفكرة القومية فتختلف عن ذلك كل الاختلاف. كما أن عدم التفضيل لا يعني عدم التمييز، ومما يبرهن على ذلك أن الأحاديث النبوية قد خصت بالذكر اللغة العربية بمناسبات شتى".

ومع كل ذلك يضيف الحصري: "فإن آراء المعارضين للفكرة القومية بناء على حجج دينية ظلت تسيطر على أذهان

الكثيرين مدة طويلة، وبذلك أعاقت كثيراً نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية" [1].

إن خلاف علماء الدين الإسلامي مع دعاة الفكرة القومية العربية ليس لأنها تدعو إلى العصبية أو على تحديد مضمون العصبية، لكن خلافهم مع القومية العربية لأنها طرحت نفسها كايديولوجيا تحل بديلاً عن الدين الإسلامي، وطرحت نفسها كرابطة تحل بديلاً عن الإخاء الإسلامي، وفي تقديري أن علماء الدين الإسلامي أول من يفقه التمايز بين الأجناس والأعراق والشعوب، لأنهم يعتبرونها آية من آيات الله، فالقرآن الكريم علمهم هذه الحقيقة حيث قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات،١٣)، وقال تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ (الروم،٢٢)، وفي تقديري أن علماء الدين الإسلامي أول من يحترم جنس العرب ولغتهم، ويؤكد ذلك

(١) الحصري، ما هي القومية؟، ص٢٠٠ .

الاحترام المكانة التي احتلها العرب لدى الشعوب الأخرى على مدار التاريخ من جهة، والإقبال على تعلم اللغة العربية من قبل الشعوب الأخرى من جهة ثانية.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، فإن الحصري يورد بعض الآراء التي تعتبر عدم إطاعة أوامر الخليفة كفراً ومنها رأي الزعيم المصري محمد فريد، ويرد بأن الكتاب لا يتضمن أي نص يدل على ذلك من قريب أو بعيد، ثم أن الخلفاء مهما توافرت فيهم شروط الخلافة ومزاياها، لا يكونون معصومين من الخطأ، فيحق للمؤمن بهذا الاعتبار، أن ينتقد أوامر الخليفة، أو يخالفها إذا رأى فيها ما يخالف العقل والمنطق والشرع الشريف.

يوضح الكلام السابق جهل الحصري لبعض أحكام الشرع البديهية وهي وجوب طاعة الإمام الأعظم ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ (النساء،٥٩) وواضح أن الأمر الوارد في الآية السابقة للوجوب، وقد أوضح الرسول أن دم المسلم معصوم إلا في ثلاث حالات هي: "الزاني الثيب، والنفس بالنفس، والمفارق للجماعة"، أما قوله عن الخلفاء

المسلمين بأنهم ليسوا معصومين عن الخطأ، فهذا صحيح وهذا ما يقول به المسلمون على مدار تاريخهم، ومن الواجب الشرعي النصح لهم وانتقادهم، لكن هذا شيء والخروج عليهم شيء آخر، فالمحرّم هو الخروج عليهم وتفريق أمر المسلمين، أما إبداء الرأي وعرض وجهات النظر في أمور الأمة فهذا أمر مندوب بإجماع الآراء، وتجب الطاعة لولي الأمر إلا في حالة واحدة هي مخالفة أوامره للشرع إذ قال الرسول ﷺ: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

أما بالنسبة للنقطة الثالثة فقد عارض بعض العلماء الوحدة العربية لأنهم رأوا فيها هدماً لشيء موجود وهو الوحدة الإسلامية، كما استشعروا فيها إيقاظاً للفتنة بين الأجناس التي تكوّن الخلافة العثمانية ومنها العرب والترك. وبالفعل هذا ما انتهت إليه الدعوة القومية عندما أدت إلى اقتتال العرب والأتراك، وأدت إلى دق إسفين من الكراهية والأحقاد بينهما.

■ ■ ■

استعرضنا فيما سبق بعض آراء الحصري حول الأديان بشكل عام والدين الإسلامي بشكل خاص، وقد وجدنا أن الحصري يقول بأن الأمة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ متابعة للنظرية الألمانية في نشأة الأمة، ولكن الحصري لم يطبق لنا في كل ما كتب هذه النظرية على أمتنا الإسلامية [1]، فلم يبين لنا كيف كوّن عاملا اللغة والتاريخ الوحدة الثقافية، ولا كيف شكلا

---

(١) الملفت للنظر والموسف في الوقت نفسه أن الفكر القومي العربي لم يحدث أي تطوير في نظريته حول نشوء الأمة، وبقي يعتبر أن الأمة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ، وبقي يستبعد الدين الإسلامي من أي دور أساسي في تكوين الأمة، ويمكن أن نمثل على ذلك بحركة القوميين العرب ذات النشأة المتأخرة نسبياً والتي كانت في الخمسينيات، فهي بدلاً من أن تراجع موقف السابقين من عوامل تكوين الأمة، لم تقم بشيء من ذلك، بل غالت في التوجّه القومي واعتبرت شعوباً كالفراعنة والفينيقيين والكلدانيين والآشوريين والبرابرة أجزاء من الأمة العربية، والحقيقة الواضحة التي لا مراء فيها هي أن هذه الشعوب ليست لها أية علاقة بالأمة العربية مهما كانت التبريرات التي طرحتها حركة القوميين العرب من مثل الدور غير الواضح للتكوين القومي العربي.

الوحدة النفسية أي وحدة العواطف والمشاعر والآلام، ولا كيف أدّيا إلى تمازج الأجناس وقبولها التعايش مع بعضها بعض، ولا كيف توصلا إلى وحدة العادات والتقاليد إلخ... لم يبين الحصري شيئاً من هذا ولن يستطيع أن يبين من ذلك شيئاً، لأن الأمة التي يتحدث عنها الحصري لم تتكون من خلال عاملي اللغة والتاريخ، بل كوّنها الإسلام (١). وسأجتهد أن أوضح في الفقرة القادمة كيف كوّن القرآن الكريم والسنة المشرفة الوحدة الثقافية، والوحدة النفسية، ووحدة العادات والتقاليد، ووحدة الآمال والآلام، والوعي بالشخصية المتميزة، وكيف كوّنا - أيضاً - وحدة اللغة، ووحدة التاريخ إلخ... وهما العاملان اللذان يربط الحصري بهما قيام الأمة، كما رأينا في تحليلنا لمضمون القومية العربية.

---

(١) إن اعتبار المفكرين القوميين أن الأمة تقوم على عاملي اللغة والتاريخ، وإنكارهم دور الإسلام في بناء الأمة جعلهم لا يستطيعون أن يشخصوا أمراض الأمة ولا يستطيعون أن يساهموا في علاجها، لأنها كلها مرتبطة بالإسلام، من مثل السلبية التي يعاني منها البناء النفسي للمسلم المعاصر، ومن مثل ضمور الجانب الجماعي في حياة المسلم المعاصر إلخ...

دور القرآن الكريم والسنة المشرفة في بناء الأمة الإسلامية

مال المفكرون القوميون العرب وأبرزهم ساطع الحصري إلى النظرية الألمانية في تشكيل الأمة[1]، فاعتبروا أن عاملي اللغة والتاريخ هما اللذان كوّنا هذه الأمة التي أطلقوا عليها اسم "الأمة

---

(١) اعتبرت الموسوعات السياسية أن الأمة تأتي حصيلة تفاعل نوعين من العوامل: الأولى: موضوعية: مثل اللغة، والتاريخ والجنس الواحد، والإقليم الواحد إلخ... الثاني: عوامل ذاتية: وعي الأفراد بأن لهم شخصية مميزة ومنفصلة تدفعهم إلى التعبير التنظيمي عن هذه الشخصية المميزة. وقد جاء إصرار المفكرين الألمان على اعتبار عاملي اللغة والتاريخ على أنهما الأصل في قيام الأمم من قبيل تعميم حالة خاصة على كل أمم الأرض، وهذا مبالغ فيه ومجانب للصواب، وسأعتبر كل العوامل السابقة التي أشارت إليها الموسوعات السياسية سواء الموضوعية أم الذاتية عوامل في بناء الأمة، وسأبين كيفية ارتباطها بالقرآن والسنة اللذين أرى أنهما الأصل في بناء أمتنا الإسلامية. (انظر "موسوعة السياسة" لعبد الوهاب الكيالي،و "موسوعة العلوم السياسية" إصدار جامعة الكويت).

العربية"، لكنهم لم يبينوا لنا كيفية بناء عاملي اللغة والتاريخ للوحدة الثقافية، ولوحدة العادات والتقاليد، ولوحدة البناء النفسي إلخ...، ولن يستطيعوا ذلك كما ذكرت سابقاً، لأن هذه الأمة بناها عاملان آخران هما: القرآن والسنة، وهما اللذان يفسران الوحدة الثقافية، والبناء النفسي المشترك، والعادات والتقاليد الواحدة، والتآلف القائم إلخ... وهذا ما سنوضحه في الصفحات القادمة.

أولاً: الوحدة الثقافية :

تتجلى الوحدة الثقافية بالتوحيد الذي يعني إيمان معظم أفراد الأمة بأن هناك رباً خالقاً لهذا الكون، وأن هذا الرب منـــزه عن الشبيه والمثيل والولد، وأبرز مقتضيات التوحيد عبادة هذا الإله وحده سبحانه وتعالى، وعدم الإشراك به شيئاً، ولا يقتصر مفهوم العبادة في الدين الإسلامي على الصلاة والصيام والحج إلخ...، بل يتسع ليشمل كل عمل دنيوي شريطة أن يترافق بنية التوجه إلى الله - تعالى-، ويدل على ذلك قول الرسول ﷺ: "إن في بضع أحدكم صدقة" قالوا: "أيأتي أحدنا

شهوته ويكون له فيها أجر" قال: "أرأيتم لو وضعها في محرم أليس عليه وزر؟ كذلك إن وضعها في حلال كان له أجر" (وراه مسلم). وقد أدى هذا الاتساع في مفهوم العبادة لتشمل كل الأعمال الدنيوية إلى اتساع مساحة العمران لدى الأمة الإسلامية، وإلى غياب الثنائية القائمة على المقدس والمدنّس التي أدت إلى تأزّم الحضارة الغربية في القرون الوسطى ثم انفجارها.

تتجلى تلك الوحدة الثقافية كذلك في انتشار الثقافة الفقهية التي لدى عموم أفراد الأمة التي تقسم الأعمال إلى ركن وفرض وواجب وحلال وحرام ومستحب ومباح ومندوب إلخ...

تتجلى تلك الوحدة الثقافية في تسليم أفراد الأمة بأن هناك يوماً آخر، وسيكون في هذا اليوم الآخر ابتعاث للناس من قبورهم، ثم محاسبتهم على أعمالهم التي أدوها في الدنيا، وسيكون المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار، لذلك يجب أن يكون الهدف هو الفوز بالجنة، والصبر على كل بلاء يصيب المسلم في الحياة الدنيا من أجل الفوز بالآخرة.

وتتجلى تلك الوحدة الثقافية في التسليم بأن القرآن كلام الله والذي يحتوي على الحق الكامل في كل أمور الدنيا والآخرة، ومن هنا جاء الاهتمام به، والحرص على تعليمه للأولاد في الكتاتيب، وترافق ذلك مع طقوس احتفالية متشابهة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، تعبر عن الفرح بذلك الحفظ للقرآن الكريم.

وتتجلى الوحدة الثقافية في كون القرآن الكريم أصل العلوم جميعها فكنت تجد العالم المسلم عالماً بالعلوم الشرعية كالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة والعلوم المرتبطة بهما، وعالماً بالعلوم الدنيوية كالفلك والرياضيات والجبر والميكانيكا وغيرها.

وتتجلى الوحدة الثقافية في كون الجوامع والمساجد في كل العالم الإسلامي مركزاً للتعليم بمختلف مستوياته الابتدائية والمتوسطة والعليا ومختلف أنواعه الدينية والدنيوية.

ثانياً: وحدة الأجناس والأعراق والقبائل :

اعتبر الإسلام أن الله - سبحانه وتعالى - رب العالمين، وليس رب شعب بعينه فقال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ (الفاتحة،٢)، واعتبر الإسلام كذلك أن القرآن ذكر للعالمين فقال تعالى: ﴿**إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالمين**﴾ (التكوير،٢٧)، واعتبر الإسلام أخوة الإيمان هي التي تجمع بين المؤمنين من كل الأجناس والأعراق فقال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾ (الحجرات،١٠)، واعتبر الإسلام أن توزع الناس إلى أجناس وقبائل وأعراق يجب أن لا يكون حائلاً بينهم وبين تعارفهم وتعاونهم فقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات،١٣)، وقد حقق الإسلام تلك الوحدة بين الأجناس والأعراق والقبائل في أرض الواقع، فتجد أن القيادات السياسية لم تبق محصورة في العرب بحال من الأحوال، بل شاركت فيها كل الأجناس فتجد أن الخلافة وهو أعلى منصب في القيادات الإسلامية لم يبق محصوراً بالعرب بل شاركت فيها

الأجناس الأخرى وأبرزهم الأتراك العثمانيون الذي احتلوا منصب الإمامة العظمى بدءاً من ١٥١٨م بعد دخول السلطان سليم مصر وأخذه الخلافة من آخر خليفة عباسي في القاهرة، وكذلك تجد منصب الوزارات فقد احتل منصبها رجال من كل الأعراق والأجناس، فتجد في الفترة العباسية العامة وزراء فرساً وتركاً منهم البرامكة والبويهيون والسلاجقة إلخ... وتجد في الفترة العثمانية وزراء أتراكاً وبلغاراً وشراكسة وألباناً إلخ...

أما منصب الوالي فقد احتله رجال من كل الأعراق والأجناس أيضاً، فلو وقفنا عند فترة المماليك واستعرضنا جنسيات الذين تولّوا قيادة الدول العربية في تلك الفترة لوجدناها قاربت الثلاثين جنسية مختلفة منها الجنسية الشركسية والكردية والتركية إلخ... وإحداها كانت الجنسية الألمانية.

أما الجيوش فقد ساهمت مختلف الأجناس فيها، وأصبح العرق التركي هو العنصر الغالب فيها عندما استجلبهم المعتصم وبنى لهم مدينة سامراء، وكان ذلك مرتبطاً بتغيير العقيدة القتالية من اعتماد نظام الكراديس إلى اعتماد نظام الكر والفرّ الذي

يعتمد على الفرسان الذين يرمون خصمهم بالنبال أثناء الهجوم وأثناء الدفاع، وساهمت مختلف الأجناس والقبائل والشعوب في توسيع رقعة انتشار الإسلام، أو في الدفاع عن البلاد الإسلامية نذكر منهم في هذا المجال: الطاهريين، البويهيين، السلاجقة، الأكراد، الزنكيين، التركمان إلخ... وبرزت قيادات من مختلف الأعراق والأجناس والشعوب من أمثال طغرل بك السلجوقي، نور الدين الزنكي، عماد الدين الزنكي، صلاح الدين الأيوبي، قطز، الظاهر بيبرس، يوسف بن تاشفين إلخ...

أما العلوم فقد أبدع فيها علماء من كل الجنسيات في كل فروع العلوم ويكفي أن نذكر سيبويه واضع "الكتاب" أشهر كتاب في النحو هو فارسي، وأن الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض فارسي، وأن ابن سينا واضع "القانون" أشهر كتاب في الطب هو فارسي، وأن مخترع علم الجبر محمد بن موسى الخوارزمي هو من خوارزم إلخ... وإذا أردنا أن نستعرض أسماء في مختلف مجالات العلوم الإسلامية كاللغة وعلم أصول الفقه وعلم مصطلح الحديث وعلم الترجمة والأدب والشعر

فسنجد آلاف الأسماء من مختلف الجنسيات العربية والفارسية والهندية والتركية التي ساهمت في الإبداع في تلك الفنون والتي لا مجال لحصرها.

ثالثاً: وحدة العواطف والتكوين النفسي المشترك :

لقد أنشأ الإسلام تكويناً نفسياً مشتركاً بين أفراد الأمة الإسلامية وأبرز معالم هذا التكوين النفسي المشترك يقوم على تعظيم الله سبحانه والخضوع له، لأنه الرب القادر الخالق القوي المنعم الوهاب، ويتحقق ذلك بإقامة الصلاة والركوع والسجود، ويتحقق ذلك أيضاً بإقامة الشعائر المفروضة كالصيام والحج والزكاة.

ومن معالم هذا التكوين النفسي المشترك حب الرسول ﷺ، ويتحقق ذلك باتباع سنته في مجال الطعام والشراب والزواج والكلام والمعاشرة واللباس إلخ...

ومن معالم هذا التكوين النفسي المشترك تعظيم القرآن وحبه والأنس بآياته وسوره، ويتحقق ذلك بالاهتمام بتلاوته

وحفظه وبخاصة في شهر رمضان حيث يعتبر هذا الشهر شهر القرآن الكريم.

ومن معالم هذا التكوين النفسي المشترك الخوف من النار ورجاء الجنة، ويتحقق ذلك بالحرص على فرائض الإسلام واتباع سنة الرسول ﷺ ، وإنفاق الأموال والتصدق بها، والإقدام على الاستشهاد في سبيل الله.

رابعاً: وحدة اللغة :

لقد كانت معجزة الرسول الأولى والكبرى هي القرآن الكريم، وبين الله -تعالى- أنه لن يستطيع أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن فقال تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ (الإسراء،٨٨)، وقد طلب الله -تعالى- من محمد ﷺ أن أن يتحدى المشركين على أن يأتوا بمثل القرآن فقال تعالى: ﴿**فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين**﴾ (الطور،٣٤)، ثم طلب -تعالى- من محمد ﷺ أن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مفتريات فقال تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (هود،١٣)، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** (البقرة،٢٣)، وبيّن الله تعالى في مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هذا القرآن الكريم عربي فقال تعالى: ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾** (يوسف،٢)، وقال أيضاً: ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً﴾** (الرعد،٣٧)، وبيّن الله في مواضع أخرى أن القرآن عربي البيان فقال تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين .بلسان عربي مبين﴾**(الشعراء،١٩٣-١٩٥)، وقال تعالى: ﴿**لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾** (النحل،١٠٣).

إن كون هذا القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى، وكونه يحتوي كلام الله، جعله في موقع الصدارة من اهتمامات المسلمين، لذلك اهتموا بلغته، وبحفظه، وبمعنى آياته، وببيانه، وتفسيره، ومناحي إعجازه... ولما كان ذلك كله مرتبطاً باللغة العربية جاء الاهتمام باللغة العربية، ولم تعد اللغة العربية لغة

القرآن الكريم فحسب بل أصبحت لغة العبادة والصلاة والعلم، مما جعلها لغة الأمة الإسلامية، ثم أصبحت لغة الحضارة الإسلامية، وانتقل تأثيرها إلى لغات الأقوام التي دخلت الإسلام، فأصبح الحرف العربي هو الذي تكتب به اللغة التركية واللغة الفارسية واللغة الهندية إلخ...، ودخلت كثير من ألفاظ اللغة العربية إلى لغات المسلمين الأخرى، كما أصبحت اللغة العربية هي لغة التفاهم بين كل شعوب الأمة الإسلامية.

ما أثر الدين الإسلامي في عامل اللغة العربية كعامل من عوامل بناء أمتنا؟ من الواضح أن القرآن الكريم هو الذي حفظ اللغة العربية، فقد كانت هناك عدة لهجات عربية في الجزيرة العربية قبل نزول القرآن الكريم، وكان يمكن أن تتطور كل لهجة لتكون لغة مستقلة بالتالي كان يمكن أن تنشأ عدة لغات في الجزيرة العربية نتيجة وجود اللهجات المختلفة للقبائل، لكن القرآن الكريم عندما كتب بلسان قريش، جعل الديمومة والهيمنة لهذه اللهجة على غيرها من اللهجات مما أنشأ لغة عربية واحدة وقضى على إمكانية نشوء عدة لغات عربية، وقد أكد عثمان

-رضي الله عنه- هذا المعنى عندما قال للرجال الذين نسخوا عدة نسخ من المصحف الذي كان عند حفصة بنت عمر زوج الرسول ﷺ وأرسلها إلى مختلف الأمصار، عندما قال لهم: "إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم" (١).

ثم إن الرعاية التي رعاها المسلمون للعربية لغة القرآن الكريم كانت انطلاقاً من ظروف دينية، فعندما وضع أبو الأسود الدؤلي قواعد النحو، وأتم ذلك سيبويه في مصنفه "الكتاب"، وعندما نقّط حروف العربية وشكّلها كل من أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي، وعندما وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي أصول معاجم اللغة، وعندما جمع العلماء مفردات العربية ومعانيها في معاجم لغوية، إنما قاموا بكل هاتيك الأعمال من أجل خدمة القرآن الكريم من أن يدخله التحريف واللحن، ومن أجل خدمة آيات القرآن الكريم أن تفهم على الوجه الصحيح. ومما يؤكد الدافع الديني وراء تلك الخدمات الجلّى التي

(١) صحيح البخاري، فضائل القرآن، الباب الثاني والثالث.

قدمها أولئك الرجال النوابغ أن قسماً كبيراً منهم ليسوا عرباً وليس لسانهم العربية، إنما اهتموا بالعربية وأفرغوا جهودهم للمحافظة عليها وضبط ألفاظها انطلاقاً من دينهم وإسلامهم.

خامساً: وحدة التاريخ :

ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية بالإسلام بشكل كامل، فقد كانت وقائع نشأة الأمة الإسلامية مرتبطة بالصراع مع مشركي مكة والمدينة حول حقائق الإسلام، ثم ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ بحروب مع مشركي الجزيرة العربية من أجل نشر الإسلام في الجزيرة العربية، ثم ارتبط بالفتوحات الكبيرة في عهد الخلفاء الراشدين من أجل نشر الإسلام في الدول المجاورة فكانت معارك اليرموك والقادسية ونهاوند وفتح مصر إلخ...، ثم ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الدولة الأموية بالصراع مع الدولة الرومانية من جهة وبالتوسع من جهة الشرق باتجاه الهند ومن جهة الغرب باتجاه الأندلس من أجل نشر الإسلام وتوسيع رقعة خلافته، ثم ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في جانب كبير منه

في مواجهة الحملات الصليبية التي استهدفت اقتلاع الإسلام وإعادة السيطرة المسيحية على بلاد الشام بشكل عام وعلى القدس بشكل خاص، لكن هذه الحملات فشلت بعد قتال استمر قرنين من الزمان اشتركت فيه كل دول وشعوب أوروبا، وقد ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الدولة المملوكية في الدفاع عن الإسلام في مواجهة الغزوة المغولية التي هدمت الجانب الشرقي من الخلافة الإسلامية، وقد ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في الدولة العثمانية في بدايته بنشر الإسلام في أوروبا وفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ثم ارتبط بالتوجه إلى الدول العربية وحكمها وإزالة حكم المماليك، وكان السبب الرئيسي في ذلك مواجهة خطر البرتغاليين الذين تنامت قوتهم، ودخلوا البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح من أجل تقويض كيان المسلمين في الجزيرة العربية.

هذا جانب عن الارتباط السياسي بين الدول التي قامت على مدار التاريخ الماضي وبين الإسلام، أما بقية جوانب التاريخ كالناحية الاجتماعية والعلمية والفنية والاقتصادية فهي مرتبطة

دون استثناء بالإسلام أشد الارتباط، ولو أخذنا مثالاً العلوم، لوجدنا أن العلوم الإسلامية المرتبطة بالقرآن والسنّة كاللغة العربية وعلوم القرآن وعلوم الحديث كلها قامت لحفظ نصوص القرآن والحديث، ولفهم معناها، أما العلوم الأخرى كالفلك والجبر والرياضيات فنجد أن جانباً كبيراً منها مرتبط بالإسلام، فنجد أن علم الفلك وتقدمه قام من أجل تحديد قبلة المسجد، وتحديد أوقات الصلوات، ونجد أن علوم الجبر والرياضيات قامت من أجل المساعدة على حل مشاكل الميراث وتوزيع الإرث إلخ...، أما الأمور الفنية وأبرزها الخط العربي فيعود في جانب كبير منه إلى موقف الإسلام من التصوير والتمثيل وتركيزه على الجانب العملي، وبسبب أن المسلم لا يعيش أزمة وجودية كما يعيشها أفراد المجتمعات الأخرى [1].

(١) فصّلت الحديث عن العوامل التي أدت إلى ارتباط فنية الخط وجماليته بقيم الإسلام في كتاب سابق لي تحت عنوان "النكسة في بعدها الحضاري" فليعد إليه من شاء التوسع في دراسة هذه العوامل.

سادساً: وحدة العادات والتقاليد :

لقد ولّد الإسلام عادات وتقاليد متقاربة لدى أفراد الأمة الإسلامية، ويتضح ذلك في توجيه القرآن الكريم المسلمين إلى التوحيد والعبادة والتطهر واستهداف الحلال والابتعاد عن الحرام إلخ... كما قامت السنة المشرفة بدور كبير في تحقيق هذه الوحدة بتوجيه المسلمين إلى الاقتداء بالرسول ﷺ في مجال الإخلاق والأكل واللباس والبيع والشراء والإحسان والتضحية والصبر والرحمة والشجاعة والأفراح والأحزان إلخ... وقد قنّن الفقه كثيراً من هذه العادات.

سابعاً: وحدة الآمال والآلام :

لقد ولّد الإسلام آمالاً واحدة لدى المسلمين في أن يكونوا أعزاء أقوياء متمكنين في الأرض يؤدّون دوراً في هداية البشرية إلى عبادة الله والابتعاد عن الشرك، كما ولّد آلاماً واحدة عند وقوع أي اعتداء، لذلك نجد أن الأمة جميعها ساهمت في رد أبرز هجومين هددا وجود الإسلام نفسه وهما الحروب الصليبية والغزو المغولي، كما استطاعوا إيقاف الغزو الصليبي من جهة

الغرب بعد سقوط الأندلس، وبقي الإحساس بوحدة الآمال والآلام موجوداً حتى اللحظات الأخيرة من الخلافة العثمانية وهي في قمة ضعفها، فنجد أن المسلمين كانوا يهبّون لنجدة بعضهم عندما يحدث اعتداء أو احتلال لبعض أراضيهم، كما حدث عندما احتلت إيطاليا ليبيا قبل الحرب العالمية الأولى، وكما كان يهدد السلطان عبد الحميد بأنه سيطلب من المسلمين مقاطعة بريطانيا في حال عدم تجاوبها مع بعض مطالبه، وكان يعني بذلك مسلمي الهند الذين كانوا تحت الاحتلال البريطاني، وبالفعل كانت بريطانيا تتجاوب معه خشية تحريك مسلمي الهند ضدها.

ثامناً: وعي المسلمين بأن لهم شخصية مميزة:

وعى المسلمون بأن لهم شخصية مميزة في عقائدهم وفي عبادتهم وفي شعائرهم إلخ... ليس هذا فحسب بل وعى المسلمون بأن لهم رسالة يحملونها في الأرض وهي الشهادة على الناس، وإنقاذهم من الظلمات إلى النور تحقيقاً لقول الله تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون**

الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة،١٤٣). وقد احتوت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تفصيلات كثيرة تدل المسلمين على كيفية تحقيق التميّز في شخصيتهم [1]، وتدلهم على كيفية تحقيق الرسالة المنوطة بهم، وبالفعل فقد نفّذ المسلمون تلك التوجيهات ومنها التي تدعوهم إلى مخالفة اليهود والنصارى والمشركين فقد قال الرسول ﷺ : "خالفوا المشركين وفّروا اللحى وأحفوا الشوارب" (رواه البخاري). وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وجد اليهود يصومون العاشر من محرّم فسأل عن ذلك فقيل له إنهم يصومونه شكراً لله على إنجاء موسى عليه السلام من فرعون فقال: "أنا أحق بموسى عليه السلام منهم، ولئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر" (رواه أحمد ومسلم).

---

(١) لمزيد من الاطلاع على توجيه الإسلام المسلمين بأن يكونوا أمة متميزة في كل شؤونهم يمكن الرجوع إلى كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" لابن تيمية ففيه تفصيلات كثيرة عن هذا الأمر.

تاسعاً: وحدة الأرض :

أقام الرسول ﷺ نواة الدولة الإسلامية في المدينة ثم اتسعت حتى شملت الجزيرة العربية بكاملها قبل وفاته ﷺ ثم اتجه الخلفاء الراشدون إلى شمال الجزيرة العربية، وتقوضت أركان الدولة الفارسية والرومية بعد معركتي القادسية واليرموك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم توسع المسلمون شرقاً وغرباً، فوصل المسلمون شرقاً إلى حدود الصين، وغرباً إلى الأندلس في نهاية عهد الخلافة الأموية، ثم توسع المسلمون في جنوبي شرقي آسيا وفي أواسط آسيا أثناء الخلافة العباسية، ثم فتح العثمانيون القسطنطينية وأدخلوا شرقي أوروبا في دار الإسلام، وطرقوا أبواب فيينا مرتين كانت الأخيرة في عام ١٦٩٩م، ثم عادت الأرض الإسلامية وتقلّصت بعض الشيء، وخرجت من السيطرة الإسلامية بعض الأراضي مثل الأندلس ومعظم دول أوروبا ، لكن الإسلام أبقى الجزيرة العربية عريناً للأمة الإسلامية، وموئلاً أساسياً لها ، لذلك لم يقبل الرسول ﷺ من المشركين العرب إلا الإسلام وإلا فالقتال بينهم وبين المسلمين، ولذلك أمر الرسول

ﷺ بإخلاء الجزيرة العربية من أصحاب الديانات الأخرى كاليهود فقال: "لا يجتمع في جزيرة العرب دينان". وأمر بطرد اليهود من خيبر شمالي الجزيرة العربية، وقد حقق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فأمر بإخراجهم أثناء خلافته.

لقد خضعت الأرض الإسلامية ضمن "دار الإسلام" إلى توسع وتقلّص، لكن مع ذلك أبقت استراتيجية الإسلام أرض الجزيرة العربية ملاذاً أخيراً للإسلام في أسوأ الظروف وأشدها حلكة، وهذه إشارة من الإسلام جديرة بالانتباه إلى أهمية الأرض في كيان الأمة الإسلامية.

عاشراً : وحدة الدولة :

لقد أقام الرسول ﷺ دولته في المدينة، وجمع في شخصه القيادة الدينية والمدنية، وقام الخلفاء الراشدون بعده بنفس المهمة، واستمرت الدولة الواحدة قائمة في عهد الأمويين، ثم جاءت الخلافة العباسية، وبدأ الانشقاق في وحدة الدولة عندما أقام عبدالرحمن الداخل خلافة ثانية في الأندلس، ثم ازداد عدد الدول التي لا تخضع لسلطان الخليفة في بغداد، أو تخضع بصورة

اسمية أو شكلية، واستمر الحال في العهدين التـــاليين: المملـــوكي والعثماني، ولكن مما يخفف من وطأة هذا الانقسام هو التزام كل الحكومات بالشرع الإسلامي، وهذا ما جعل علماء الأمة يدعون جماهير المسلمين إلى طاعة هؤلاء الحكام طالما أنهـــم يحكمـــون بشرع الله، وهذا ما حقق وحدة الدولة من خلال وحدة المرجعية الدينية، وقلّل من مساوئ الانقسام ونتائجه.

■ ■ ■

اتضح من العرض السابق أن الإسلام ذو دور أساسي في بناء الأمة ، والإسلام - وحده - يستطيع أن يفسر كل تجليّات الأمة، وتطورات مسيرتها، وعوامل مرضها، وكيفية إنهاضها إلخ...

لذلك عندما جاءت القيادات القومية، واعتبرت أن اللغة والتاريخ هما عاملا بناء هذه الأمة، أخطأت في فهم حقيقة هذه الأمة، وقد انبنى على هذا الخطأ في الفهم أخطاء في التعامل، وأبرزها: تغييب الدين الإسلامي من مركز التوجيه والتأثير

والقرار ليس هذا فحسب [1]، بل اعتبار الدين الإسلامي عدّواً للتقدم والحضارة، ورديفاً للتأخر والانحطاط، والاجتهاد في تغريب المجتمع حسب النموذج الأوروبي [2]، ومحاولة اقتلاعه من حياة الناس، لكنها فشلت في هذا، وكانت الثمرة هي الصحوة

---

(١) إن إجراء مقارنة بسيطة بين القيادات القومية اليهودية والقيادات القومية العربية تبين أن القيادات القومية اليهودية احترمت الديانة اليهودية وجعلتها عاملاً أساسياً من عوامل بناء الأمة، في حين أن القيادات القومية العربية بكل أسف تنكرت للدين الإسلامي ولم تعتبره عاملاً أساسياً من عوامل بناء الأمة، وكان هذا الفرق في التعامل أحد أسباب نجاح القيادات الأولى وتعثر القيادات الثانية وفشلها.

(٢) مرّت ايديولوجيا القومية العربية بمرحلتين: الأولى: ليبرالية، والثانية: اشتراكية، وكان الإسلام متهماً في المرحلتين، لكن وتيرة الاتهام ومستوى محاولات الاستئصال أصبحت أكثر ارتفاعاً في المرحلة الثانية التي بدأت في الستينات من القرن الماضي وهناك وقائع كثيرة تؤكد ذلك، لا مجال لاستعراضها والتفصيل فيها خشية التطويل من جهة، ومن أجل حصر الموضوع في المناقشة الفكرية والابتعاد عن الاستعراض التاريخي من جهة ثانية.

الإسلامية، فما مظاهرها؟ وما أسبابها؟ هذا ما سنجد جوابه – عزيزي القارئ – في الفصل الثالث.